

بسم الله الرحمن الرحيم

صفي الدين عبد المؤمن الأرموي

أ.د. صالح المهدي

ولد هذا المفن العملاق سنة 613هـ/1206م وقد اختلف في مكان ولادته فقا المعزم الأرميلي : اجتمعت به في مدينة تبريز سنة 689 هـ وأخبرني بأنه ورد بغداد صبيًا واتصل بأحد فقهاء المستصيرية أيام المستنصر بالله العباسي .
والمؤكد أن أصل والده من أرمية في بلاد أذربيجان وتسمى الآن رضائية وهي تبعد بنحو 921 كم عن تهران وتأتي في الجنوب الغربي لمدينة تبريز
وقد كان الأرموي متضلعا في عدة علوم منها العربية ونظم الشعر وعلم الإنشاء والتاريخ والموسيقى، وقد انفرد في زمانه بكتابة المنسوب ويقول صفي الدين عن نفسه : اشتغلت بالمحاضرات والآداب العربية وتجويد الخط الذي بلغت فيه الغاية ثم اشتغلت بضرب العود فكانت قابليتي فيه أعظم من الخط لكن اشتهرت بالخط وأكاد لم أعرف بغيره .
واعتبارا لمكانته المرموقة في شتى العلوم والفنون مع كرم أخلاقه وحسن معاشرته استخلصه آخر الخلفاء العباسيين "المستعصم بالله لنفسه وعينه كاتبًا لخزينة الكتب التي كان يجلس ببابها ينخ ما يطلبه الخليفة في نفائس الكتب وقد كان الخليفة كثير التردد على هذه الخزنة ويطيب له فيها المقام مع الأرموي .

واكتشف الخليفة مكانة صفي الدين الموسيقية الرائعة عندما استمع الى مغنيته المفضلة "لحاظ" التي كانت أحسن نساء عصرها صوتا وأجملهن وجها في لحن طيب أخذ فسألها : "من واضع هذا اللحن؟" فأجابته: " هو لأستاذي صفي الدين "فقال علي به، فأحضر بين يديه واستمع الى بعض أغانيه وإلى غزفه العجيب على آلة العود فأعجب به وأمره بملازمة مجلسه وعين له راتبًا سنويًا بخمسة آلاف دينار.

ويقول المؤرخ اسكتلندي الدكتور فارمر : إن الخليفة المستعصم كان يقضي أغلب أوقات فراغه في الاستماع إلى الموسيقى وقد كان صفي الدين أشهر فناني بلاطه فعينه رئيسا للموسيقين وكاتبه ومدير مكتبه وكان مع ذلك صديقه المقرب .

ولما سقطت بغداد على يد القائد المغولي هولاكو سنة 656 هـ/1258م أحضر لديه صفي الدين فأعجب بغنائه وبعزفه على العود فضاغف له المرتب وجعله عشرة آلاف دينار سنويا .

وكان صفي الدين من أحسن علماء الموسيقى وأمهر العازفين على العود وكان أهم من كتاب في علم الموسيقى بعد الكندي، والفارابي ، وابن سينا، وابن زبلة وابتكر مدرسة الخاصة لعلم الموسيقى وقد اعتمد عليها كل من أتى بعده من العلماء ومن الموسيقيين ألف عدد الكتب التي اعتبرها الدكتور فارمر أهم المصادر للموسيقى العربية .

وبالنسبة للخط فقد تتلمذ عليه أغلب الذي اشتهروا من الخطاطين منهم "ياقوت المستعصي " وفي هذا الشأن يقول الدكتور ناجي معروف : إن جمال الدين المستعصي الرومي كان الخلفية المستعصم اشتراه ورباه بدار الخلافة واعتنى به صفي الدين الأرموي في تعليم الخط إلى أن وصل فيه إلى قمة الإتقان . واعترف بفصله وتقدمه في هذا الفن كل من قطب الدين الشيرازي، ومحمد الأمللي وعبد القادر ابن غيبي ومحمد ابن عبد الحميد اللاذقي، وقال عنه الأب كولنجيت مندوب سوريه في المؤتمر الأولى للموسيقى العربية المنعقد بالقاهرة سنة 1932 : أنه أول السلم الموسيقي وهي منجهة أخرى وحد بين نظريات السلم لدى الفرس والعرب والأتراك، وما نزل نستعمل المصطلحات الموسيقية بلغات هذه البلدان كما نترجم بكلمات فارسية مثل دوست وتركية مثل جانم وأمان وعربية مثل ياليل وما اشتق

منها، وهذا ما دعاني إلى نسبة موسيقى هذه البلدان جميعا بموسيقى الحضارة الإسلامية وهذا يجلب إليها في نظري الإكبار والتقدير .

ومن أشهر مؤلفات الأرموي كتاب " الأدوار " وأقدم مخطوطة منه توجد بمكتب نور عثمانية باسطنبول تحت رقم 3653 ومن نسخه العديدة توجد إحداها بمكتب المتحف البريطاني تحت عدد OR ، ومن مؤلفاته المعروفة الرسالة الشرفية في النسب التألفية" وقد أفدها في عهد المغول إلى تلميذه شرف الدين هارون الجويني وتوجد منه نسخة خطية في مكتبة برلين تحت رقم 5506 كتبت سنة 674هـ/ 1276 م وهي تعتبر بذلك أقدم نسخة معروفة في العالم . وله مؤلفات أخرى مفقودة نذكر منها "الإيقاع" باللغة الفارسية و"الكافي من الشافي " و"العروض والقوافي والبديع" .

وأثرى رحمه الله الميدان الموسيقي باختراع آلتين موسيقيتين أولاهما:

1- "اللزجة" وهي من فصيلة القانون 2- "المغني" وهي من فصيلة القانون أيضا وصورتها تشبه العود .

وعاصر الأرموي الأربعة خلفاء الآخرين من الدولة العباسية الناصر لدين الله الظاهر لأمر الله - المستنصر بالله والمستعصم بالله الذي حضر معه سقوط بغداد بأيدي المغول) ثم عاشر الحاكم المغولي الأول "هولاكو" خان من سنة 656 هـ إلى سنة 663 هـ ؛ ثم عاشر ابن هولاكو "أباقا" ثم "توكادار" الابن الثاني لهولاكو وهو أول من أسلم من الحكام المغوليين فسمي "أحمد" ثم ثارون ابن أباقا الذي حكم العراق من سنة 683 هـ إلى سنة 690 هـ، وأخيرا "خاتو" ابن أباقا وكان حكمه بني سنتي 690 هـ - 694 هـ .

وأدخل صفي الدين الأرموي عدة تجديدات على موسيقى الحضارة الإسلامية منها

بالخصوص :

1- أنه أوجد سلما موسيقيا جديدا ذا 18 درجة موسيقية وتوجد بين تلكم الدرجات 17

بعدا موسيقيا جعل ذلك أساسا لوضع الدساتين في عنق آلة العود .

2- هو أول من استعمل الحروف الأبجدية لتسمية الدرجات الموسيقية وذلك بالعشرة أحرف الأولى وإذا ما واصلت الدرجات في الارتفاع استعملنا الحرف العاشر (ي) مع إضافة باقي الحروف (ي-ا، ي-ب، ي-ج).

3- فهو أول من دون الإيوازات بعدما كانت تعرف بأصابع اليد اليسرى

4- وهو أول من استعمل الكلمات الفارسية (إيوازا) التي تترجم عربيا بالصوت.

5- وهو أول من صور الأدوار على عدد نغمات السلم الموسيقي، إذا صور كل دور

على 17 درجة ويبدو أن هذه الظاهرة آخذة في التلاشي . وقد كانت لي تجربة مع أبرز عازفي لساظر بإيران عند زيارتي الأولى لطهران سنة 1960 وهو الاستاذ الكبير المرحوم أحمد عبادي حيث طلبت منه ان يرتجل على أي مقام يختاره فقام بذلك في مقام الساكاه، فأخذت ارتجل الغناء معه وغنيت هذا المقام على درجة غير درجته المؤلف فتوقف رحمه الله عن العزف وقال : إن مصاحبة هذا التصوير غير ممكنة بسبب الدساتين الموضوعة في عنق هذه الآلة وهي لا تسمح بالخروج عنها .

6 - وهو أول من وزع أبيات الشعر على الدرجات الموسيقية مع وضع الضروب تحت

كل رقم موسيقي وقد قرب بذلك من كتابة الألحان كاملة على غرار ما نقوم به الآن (وحكى لي شيخ الفنانين بتونس المرحوم الأستاذ خميس الترنان أن عازف الرباب الشهير ابراهيم الرفرافي كان يكتب الألحان التي سمعها على طريقة الأرموي ثم يؤديها أداء صحيحا ويقول هذا الأخير أنه تعلمها عن الباحث الإنكليزي البارون درلنجاي صاحب كتب الموسيقى العربية في ستة مجلدات).

7- وهو أول من تعمق في درس البعد الطنيني وقد رمز له بحرف (ط) وكذلك في بعد

البقية وعرفه بحرف (ب) وقال عن حرف الجيم إنني لم أجد له اسما بين الأسماء ثم أطلق عليه بعد الأرموي ؟

ومن المؤكد أن مستعمل علامات لرفع الدرجات الموسيقية بنسب أقل من نصف الدرجة ويقول المرحومان الأستاذان : "وزيرى وخالكى أنها باقية فى الموسيقى الفارسية كما يلى :

فى الموسيقى الفارسية :

للخفض برىع البعد ويسمى "كورون "
للرفع برىع البعد ويسمى "صورى "
فى الموسيقى التركية التقليدية :
تسمى "فضله " وتخفض تسع البعد
تسمى "بقية " وتخفض أربعة اتساع البعد
تسمى "مجنب صغير " وتخفض خمسة اتساع البعد
تسمى "مجنب كبير " وتخفض ثمانية اتساع البعد
تسمى "طنينى " وتخفض بعد كاملا
تسمى "فضله وترفع تسع البعد
تسمى بقية وترفع أربعة اتساع البعد
تسمى "مجنب صغير " وترفع خمسة اتساع البعد
تسمى "مجنب كبير وترفع ثمانية اتساع البعد
تسمى "طنينى " وترفع بعد كاملا

وهى تعتمد على السماع بواسطة القياس بألة "الصنومتر"

وقد بحث الأمر بالمؤتمر الأول للموسيقى العربية المنعقد بالقاهرة سنة 1932 ووضعت علامات لربع الدرجة (المرهوم) وفيما يلي علامات ذلك :

في الموسيقى العربية

للخفض بربع البعد (1)

للرفع بربع البعد

وبعد الاطلاع على كل ذلك أجريت بحثا علميا لمختلف المقامات العربية أثناء صائفة

1996 بالمركز الموسيقي الأمريكي "بأنترولوكن" بولاية "مشقن" اعتمدت فيه على الجهاز الإلكتروني لهذا المركز وهو من نوع استروبيكون" 6 ت 3 لما اشتمل عليه من دقة تمكن من التعرف على ضبط الصوت مع القياس بنسبة تقسم البعد الواحد إلى مائة جزء كما يمكن من تحقيق ضبط ذلكم القياس بطريقة مرئية لا تدع مجالا للشك، ذلك أن الجهاز إذا أسمع صوتا معيناً بين دائرة مضيئة كما أن القياس بين دائرة أخرى وعند عملية الضبط يكون ذلك باندماج الدائرتين بحيث تصبحان دائرة واحدة .

وقد أسفرت نتيجة البحث الذي أجرته عن رفع أو إنزال بعض الدرجات بنسبة تتراوح بين

20% و30% و40% من البعد الكامل وضعت لذلك العلامات الآتية لتلكم النسب .

وقد عرضت نتيجة هذا البحث على الندوة العلمية التي نظمها مركز "غوت" الألماني

بمدينة بيروت سنة 1968 وشارك فيها العلامة الأستاذ"ماريوس شنيذر " أستاذ العلوم الموسيقية

بجامعة "كولونيا الألمانية . ومن تركيا الأستاذ "عدنان سيقون المؤلف الشهير وأستاذ التأليف

الموسيقي بمعهد أنقره والأستاذ "روشنكام" عميد الموسيقيين التقليديين الأتراك ومن البلاد الفارسية

الباحث الأستاذ " خاتشي " ، أما من

الجانب العربي فقد حضر معي عميد الموسيقيين التقليديين بلبنان المرحوم الأستاذ "سليم الحلو" ووافق الجميع على البحث وعلى العلامات الآتي بيانها :

للخفض	للرفع
نسبة 20 %	نسبة 20 %
نسبة 30 %	نسبة 30 %
نسبة 40 %	نسبة 40 %

8- هو أول من ضبط عدد الأبعاد ذوات الأربع درجات وذوات الخمس درجات معطيا الأولى اسم الطبقة الأولى والثانية الطبقة الثانية .

9- وأحدث الدوائر الموسيقية وعدد 84 دائرة وجعل لكل دائرة منها سلما لمقام خاص .

10- وأخيرا فهو أول من ثبت النوتة الموسيقية من اليسار إلى اليمين (ولا أعتبر أن هذه الإضافة إيجابية لأننا وجدنا صعوبة في كتابة الكلمات العربية على النوتة الحديثة لهذا السبب ، ولكن من إيجابيات أنه أوجد السلم الطبيعي العربي وسماه ذا البعدين وبين درجاته بالحروف والأرقام وربطها صديقنا المرحوم الحاج هاشم الرجب بدور العشاق) .

وتعرض الرموي في الفصل 13 من كتب الأذوار إلى الإيقاع الموسيقي الذي نعته بأنه جماعة نقرات بينها أزمنة محدودة كالمقادير لها أذوار متساويات الكمية على أوضاع مخصوصة ويدرك تساوي الأزمنة والأذوار بميزان الطبع السليم وقال أيضا كما أن عروض الشعر متفاوت الأوضاع في الأوزان ولا يفتقر الطبع السليم فيها إلى ميزان العروض فكذلك لا يفتقر إدراك تساوي أزمنة كل دور من أدوار الإيقاع على ميزان يدرك به ذلك بل هو غريزة جبل عليها الطبع وتلك الغريزة للبعض دون البعض، وقد لا تحصل بكد واجتهاد .

وأنا أكبر ما وصل إليه الأرموي في تعريف الإيقاع وأكد أن الأذوار المتساوية المادي تحدث عند تكرارها انسجاما في حركات الإنسان والحيوانات بجعلها يقوم بالأعمال المضنية دون الشعور بالتعب والبالخطر الذي يجابهه ولنا في

البناعين الذي يركزون أسس المباني أحسن مثال، فهم مجموعة من العملة يقوم رئيسهم بالغناء ويقوم بدق الرزامة على إيقاع ذلك الغناء كما ان للبحارة رئيسا يغني وتقوم الجماعة بحركات المقاذف للسير بالقوارب ف البحر وإذا ما أراد رئيسهم الإسراع بالسير فإنه يسرع في إيقاع الغناء فيتبعونه بحركاتهم ومقاذفهم دون إرادة ولنا في الجنود أحسن مثال حيث يقومون بأداء الأناشيد الحماسية والسير بخطواتهم على إيقاعها ويدخلون غمار الدفاع عن أوطانهم لا شعوريا، ونورد مثال انسجام الحيوانات مع الإيقاع في خلال ما يؤديه الحادي من غناء تسيير الإبل على إيقاعه غير شاعرة بثقل حملتها ولا بطول المسافات التي تقطعها سواء في رحلتي الشتاء والصيف التجاريتين اللتين تحدث عنهما القرآن الكريم في سورة قريش أو في الرحلات الخاصة التي طبقت في عهد الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ولذا أخالف الأرموي في قوله : "كذلك لا يفتر إلى إدراك تساوي أزمنة كل دور من أدوار الإيقاع إلى ميزان يدرك به ذلك بل هو غريزة جبل عليها الطبع السليم وتلك الغريزة للبعض دون البعض وقد لا تحصل بكد واجتهاد ؟

وأقول : إن ما قرره الأرموي ربما كان يحصل في عصره الذي لا تسمع فيه الموسيقى إلا نادرا وتعتبر ميزة يختص بها الأمراء والأعيان بينما يثبت العلم الحديث أن الجنين يستمع إلى العالم الخارجي عن محيطه في بطن أمه ويتأثر بسماعه ويعتبر ذلك بمثابة الدرس الأول الذي يتلقاه الإنسان وتساعد على تقبل في العالم الجديد الذي سينزل إليه في الشهر التاسع من بداية نشأته الأولى، وعند ذلك يبدأ دور إدراكه وخزنه للمعلومات ثم يتعلمها فيستمع إلى الأناشيد الصوفية التي تصاحبها آلات الإيقاع عند الحضور الأسبوعي مع والده (البننت مع أمها) وعندما يدخل الطفل الى سن المراهقة أو الشباب يبدأ في المشاركة في صفوف الرداة (المذهبية) الذين يقومون بإعادة الجمل الغنائية التي يؤديها المنشدون (القوالة) وبذلك يطبق ما أدركه سابقا من مقامات وإيقاعات بواسطة الغناء.

وحتى من لم يسعده الحظ بالتردد على مقامات الصوفية فالإيقاع يتمكن منه من سن الطفولة بما يقتحم سمعه من الأغاني التي تؤديها أمه ويجعلها تدخل الأذان بدون استئذان وكذلك بما يسمعه من غناء وموسيقى بواسطة الإذاعة المسموعة والمرئية والمسجلات والحفلات والمهرجانات .

وقد كان من نتائج ذلك أن لم نجد طفلا أو شابا لا يدرك الإيقاع ويتعلمه بسهولة تجلب الأنظار ومعينة الأولى في ذلك هو تكرار الأدوار التي تحدث تأثيرا على حركات الانسان وحتى على دقات على قلبه، وكذلك الشأن مع تفعيلات الشعر فتكرارها يسهل التمكن من حفظها بسهولة ونلاحظ ذلك في طلاب الجامعات الإسلامية الذين يحفظون قواعد النحو والصرف والفقهاء وتجويد القرآن الكريم وغير ذلك من العلوم بما يحفظونه من المتون وهي قطع شعرية تصل إلى آلاف الأبيات لولا الأدوار المتكررة في الشعر وقد جرب بعضهم تأليف متون بالشعر الحر فلم يلق أذنا صاغية ولا حفظا ولا ترديدا ولنا في تونس وقف للأميرة عزيزة عثمانة يمنح المؤدبين وتلاميذ الكتاتيب القرآنية مقادارا من المال مقابل قيامهم بأداء الأناشيد الدينية بمناسبة ذكرى مولد الرسول صلى الله عليه وسلم، وأمام ما ذكرناه فلم يعد هنالك شاب ولا طفل يمكن أن نتهمه بعدم إدراك الإيقاع والتفاعل معه بعيدا عما قاله الأستاذ صفي الدين الأرموي من أن غريزة الإيقاع تكون لبعض الشبان دون البعض ولا تحصل لديهم بكد واجتهاد وعذر صفي الدين هو هذا التغيير السريع في تطور الإنسان بما لا يصعب عليه شيء في هذه الحياة .

وختاما نحمد الله أن تعرفنا على هذا عملاق العارف بشتى الفنون والمساهم في تطويرها معطيا لجيله قدرا كبيرا من المعرفة استفادت منه الأجيال المتعاقبة (لو تعلقتم همة المرء بما وراء العرش لناله).

ولله الموفق

والسلام

أ.د. صالح المهدي